



أعظم تعبير عن الثورة هي أنها مانحة الحياة للناس، باعثة على التجدد و النماء، و دحض البالي و الرخيص، و ليس أصدق بمفهوم الثورة بهذا المعنى من الثورة السورية المجيدة، فهي برأيها لا تقف عند حدود تغيير حاكم أو نظام فاسد فحسب بل تتعدها إلى شفافية دفع الظلم بكل أشكاله السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و النفسية.

لقد نقلت بوح القلب و تراثيم الخاطر و حولتها إلى كلمات مدادها دم الشهداء و حروفها أجسادهم الطاهرة و هدفها ترجمة الذات السورية إلى واقع حضاري يفخر صناعه به و يصدحون بأصواتهم صرخة إنسانية ضد كل ما هو غير إنساني و كما قال بودلير الإنسان المنصف لا يكتفي بالتألم مما هو لا إنساني بل يعمل على إزالته أيضاً. و أكبر جور تشهده سوريا اليوم هو العدوان الثلاثي الإيراني- الأسد- الشيطاني (حسن نصر الله) و من ورائهم صراعات

أهمية تسعى إلى نهش ما تستطيع من جسد الفريسة بعد أن ساندت القناص على أصطيادها.

و لاشك أن الشعب السوري اليوم لا يقاتل عدواً واحداً وقف له بالمرصاد على جبهة واحدة بل يقاتل العالم أجمع وكل طرف من أطراف الحرب يراهن على النصر معملاً على أسلحته الخاصة، و قدرته على إحداث التغيرات الجيوسياسية و الجيوسياسية، و لا شك أن حرباً ضروسأً كهذه تجرّ الكثير من النزاعات و النعرات داخل سوريا و خارجها لا سيما أنها طالت و من المرجح أن تطول أكثر و أكثر.

وثمة حقيقة واحدة ثابتة هي أنّ ثورة الشعب السوري منتصرة إن عاجلاً أو آجلاً و أنّ نظام الأسد إلى زوال، إذ لم يعد يذكر اسمه على الخارطة السياسية إلا في عبارة واحدة فقط (سورية ما بعد الأسد) فما هو شكل سوريا بعد الأسد؟ سؤال يُؤرق الجميع و يحثّهم على رسم مستقبل الحكم في سوريا بعد الأسد بالدرجة الأولى و من ثمّ مستقبل سوريا الحضاري الاجتماعي ككلّ.

صراع مرير تدور رحاه سرّاً و علانية بين وجهاء السياسة السورية المعارضة منها و المؤيدة، و قد تبانت الدعوات تباعي الفكر الداع لها بدءاً من أنصار العلمانية و الداعين إلى إقامة دولة مواطنة مدنية مروراً بدعوات الداعين إلى تشكيل حكومة ائتلافية تضمّ أطياف المجتمع السوري بكلّ خلفياته القومية و الدينية، و دعوات تنصيب فاروق الشرع التي تبنّتها روسيا و أعلنت عن استعداد الأسد للتنحي وتسليم السلطة لنائبه الصوري الشرع الذي مازال الشعب السوري يرفضه كونه من فلول نظام بائد رغم انخفاض و تيرة ممثلي المجلس الوطني في رفضه و إعرابهم عن قبوله على استحياء، و من ثمّ محاولات المجلس الوطني تشكيل حكومة انتقالية مرضية لجميع أطراف المعارضة بما فيهم جماعة الإخوان المسلمين الذين يسعون إلى إحياء التجربة المصرية لكن مع إعطاء وعود و ضمانات للأقليات بعدم المساس بحقوق المواطنة والمشاركة في الحكم و لعلّ هناك فئة صامتة تخطّط إلى استنساخ الحالة الأردوغانية بإقامة دولة إسلامية على الطريقة المدنية الفضفاضة.

وبين كلّ هذه الأصوات الداعية إلى أشكال متباعدة من الحكم يبرز صوت المنادين بالخلافة الإسلامية القادمة وقد تضافت هذه الأصوات ليس على المستوى السوري فحسب بل ربما على مستوى العالم الإسلامي.

ولعلّ الفئة الداعية إلى إحياء عهد الخلافة هي أكثر الفئات رفضاً للتدخل الأجنبي في سوريا لإنها حالة الحرب و إسقاط النظام الأسدية و يرون في ذلك ضرباً من الشرك و ينذرون بالاحتلال الغربي الذي يتّنطر فرصة انهيار النظام الأسدية لاستغلال حالة الفراغ الدستوري و فرض هيمنته ووصايتها و حكمه المختارين وفق أجنداته الخاصة و يخشون من ساينكس بيكونج جديدة في سوريا و لذا فهم يصرّون على تحقيق النصر بجهودهم في الوقت الذي يدينون فيه تقاعس الدول الإسلامية عن نصرة الشعب السوري و مذلة العون له في حربه المقدسة و تردد بين الحين و الآخر دعوات للجهاد الإسلامي مما حدا ببعض الأشقاء العرب إلى دخول سوريا بداعي الجهاد والدفاع عن الأعراض و الأنفس مما فسح المجال أمام نظام الأسد بالتجوّل والادعاء أنّ عناصر القاعدة بدأت تتسلل إلى سوريا لتنفيذ عمليات إرهابية استشهادية تستهدف أمن الدولة و كانت دعواؤه ذريعة له ليضرب بيد من حديد و يمعن بقمع الثورة و دمار البشر والحجر وقد منحه العالم المتآمر غطاء دولياً سياسياً و أطلق يده ليستمر في مسلسل إنهاك الثورة و الشعب واستنفاد مقدرات سوريا وخيراتها و ضرب بنيتها التحتية، و أيّ هدية يقدّمها المجتمع الدولي لإسرائيل أعظم من تدمير سوريا و استنزاف جيشهما الوطني و شعبها الشائر العظيم؟

و السؤال: ما هي ملامح دولة الخلافة الإسلامية القادمة و ما هي سمات الخليفة المنتظر؟

و هل ستضمّ هذه الخلافة كافة الدول الإسلامية في العالم و ينطوي تحت لوائها ملايين المسلمين في الشرق و الغرب؟ وكيف سينظر العالم الغربي للإسلامي إلى هذه الخلافة و هو يشعر بالخطر المحدق من قيامها و يحاربها بشتى الوسائل، سواء على مستوى القيادات و الحكام أو على مستوى الشعوب الذين أصابهم فيروس الإسلاموفobia بسبب سوء ما يبته الإعلام الغربي عن المفاهيم الإسلامية ويسبب قصور العالم الإسلامي عن تقديم الصورة الحقيقة للإسلام و إنصافه من

فمشكلة العالم الإسلامي كانت وما تزال تتبّع من ضعف الإعلام وندرة العاملين في مجال الدعوة وافتقارهم إن وجدوا إلى الثقافة الغربية وإلى اللغات الأجنبية التي هي وسيلة الخطاب العالمي وإيصال الدعوة لغير الناطقين باللغة العربية. وقد كثر الحديث عن عهد الخلافة القادمة في الخطاب العالمي وتناولها البعض بالتهكم مثل بريجنسكي الذي قال أنَّ الإسلاميين لا يعندهم وحتى إشعار آخر قد يكون بعيداً جداً، أو مأسوياً جداً، سوى السلطة.

إنَّها جاذبية الخلافة التي يفترض ألا يكون لها مكان في العصر، ولكن من يقول أنَّ الإسلاميين يؤمنون بمثالية القيم الراهنة، بما فيها القيم التكنولوجية، حتى أنَّ الكثير من الأبحاث تتحدث عن "اللعنة التكنولوجية".

وتساءل البعض هل سيشهد العصر الراهن خروج فتوى بتحريم الكهرباء على اعتبارها بدعة عصرية؟ و ما إلى هناك من سخافات لا تمت إلى جوهر القضية بصلة.

و عموماً يرى الكثيرون أنَّ فكرة الخلافة هي فكرة مبعثرة في رؤوس الداعين إليها المتبنّين لأفكار حزب التحرير وهم متفرقون في أنحاء المعمورة ولا يملكون أية كتلة صلبة مستقرة في موقع راسخ ما قد تمكّنهم من طرح رؤيتهم طرح جدي لذلك تبقى أفكارهم أشبه بالطوباوية منها للواقعية، لذا فإنَّ الدخول في عمق هذه الفكرة يستوجب الانخراط في علاقة مستقبلية مع الدول الإسلامية ومحاولة استقطابها لجاذبية الخلافة مما قد يشكّل ضرراً على العلاقات الدبلوماسية بين هذه البلدان وترفع الكثيرون منها عن قبول الفكرة لاسيما أنها تغلي نفوذ الحكام و تربطهم بحكم مركزي نابع من الخليفة المنتخب وهذا من شأنه أن يعطي أعداء الفكرة مبرراً للهجوم عليها ومحاولة الوقوف في وجهها لمنع تبلورها وتطورها مع إنَّها عامل مهم لتشكيل كتلة إسلامية ذات نفوذ و سيادة و استقلالية.

لذا تبقى الفكرة إجمالاً غارقة بالغموض و مغرقة بالأحلام إذا ما أُسقطت على واقع العصر الراهن و تشابك العلاقات السياسية و تقاطع أو تناقض المصالح الاستراتيجية للبلدان الإسلامية المعنية.

ولا يمنع ذلك من قيام تحالف إسلامي سني بطريقة تنسجم مع روح العصر.

لعلَّ تركيا تبرز هنا كأحد أهمِّ محاور التحالف السني المنشود إن لم تكن محورها الأول و عمودها الفكري، وقد تشدّق الكثيرون بالتخويف من احتلال عثماني جديد قادم وحدّرها من إحياء الإمبراطورية العثمانية بعد أن أصبحت رميمًا و قالوا أنَّ الامبراطوريات كالبشر إذا ماتت لا شيء يحي عظامها وهي رميم إلا قدرة الخالق.

لكن كلَّ المؤشرات تدلُّ أنَّ ثمة تصاعد واضح يبشر بقيام حلف إسلامي سني نواهه تركيا و سوريا و العراق السني و لبنان السني و قد تحدثَ الكاتب مجاهد مأمون بيراني عن بذور هذا التحالف و رأى كلَّ الحكمة في تحفظ أردوغان عن الرد على قذائف القوات الأسدية وانتهاكاتها للحدود التركية مراً، و لاسيما بعد زيارة الرئيس المصري مرسي إلى تركيا و تكاثف حزب العدالة و التنمية مع جماعة الإخوان المسلمين في مصر ممثلاً بمرسي، في محاولة لجرّها إلى حرب إقليمية قد أنذر بوقوعها أو باما و غيره وتحدث عنها صالح الفلاّب في مقالة مطولة محذراً من تبعاتها على المنطقة.

و الصمت التركي لم يكن ضعفاً ولا خوفاً وإنما حكمة لها رؤية بعيدة المدى، على خلاف الرؤية الشعبية التي تدين أردوغان و تتناول صمته بالسخرية و الشتائم كونها تركَّ التفكير فقط على واقع اليوم و تفاقم الأزمة في سوريا واستنزاف الشعب في القتل والدمار والحصار حتى أصبحوا يطالبون بتدخل المريخ و عطارد لإنقاذهم من رحى الحرب الدائرة.

وبات من الواضح أنَّ أمريكا لها إرادة في مَّعمر الثورة و الحرب الدائرة بدليل امتناعها عن تزويد الجيش الحرَّ بأسلحة نوعية و مضادات طيران و رفضها لإقامة حظر جوي من شأنه أن يقلب موازين المعركة و يحسمها لصالح الثورة الشعبية والجيش الحرَّ وهذا ما لا تريده أمريكا في الوقت الراهن.

إذ أن استمرار الحرب يحقق مصالح استراتيجية لجميع أطراف الصراع الحالي، فالدب الروسي الذي استثنى استثناء أمريكا وقوات الناتو بنصيب الأسد في ليبية، وإخراجه من المولد بلا حمض، وجد فرصة في التعتن في موقفه الداعم للأسد ليحصل نصيب الأسد ويثبت أن روسيا قوة، على العالم أن لا يستهين بها، فمنحته أمريكا هذه الفرصة ليشبع نهمه في الاستغلال والنفوذ وقد جنت روسيا إلى الآن أرباحاً طائلة من مجرد بيعها الأسلحة الفاسدة القديمة وخرقها الحربية إلى النظام الأسد، ناهيك عن العقود والاتفاقات الاقتصادية السرية والعلنية وعن عمليات تبييض الأموال وإيداع ودائع مالية ضخمة في البنوك الروسية وإقامة مشاريع واستثمارات مشتركة بين قادة النظام الأسد والزعamas الروسية المتكالبة. كل ذلك أدى إلى اضطراب دراميكي في المشهد.

تدهور مبرمج في العلاقات بين الدول، وبين الطوائف، وبين المذاهب، وإذا كانت إدارة الرئيس رونالد ريجان قد أطلقت نظرية «حرائق الغابات» لتسويق الاستراتيجية الخاصة بافعال حروب تحت السيطرة ولأغراض محددة، فإن النظرية الشائعة الآن هي حرائق الشعوب.

يرى هنري كينغستون، الخبير الأمريكي، أن الحرب الباردة في الشرق الأوسط تتجه نحو الذروة. فذاك الغرام الروسي بنظام الرئيس بشار الأسد لا يمكن أن يكون، على المستوى الاستراتيجي، من قبيل العشق العذري. فقاده موسكو يشعرون بأن الدرع الصاروخية الأمريكية وضعت في غرف نومهم.

شيء ما يشبه الاحتلال الاستراتيجي لروسيا التي لا يمكن أن تتصور خسارة صواريختها العابرة للقارات مفعولها السياسي والاستراتيجي، ليضيف أن سوريا مكان مثالي لإقامة منشآت تفضي إلى موت الدرع الصاروخية في تركيا. وتأتي مصلحة أمريكا في استمرار الحرب في سوريا أيضاً في استنزاف إيران وقوتها العسكرية والاقتصادية في دعمها للأسد و في ذلك خير لأمريكا من توجيه ضربة مباشرة لإيران تستنزف قواتها و اقتصادها كما استنزفتها في حربها في العراق.

و كل المؤشرات تدل إلى تراجع العملة الإيرانية بشكل ملحوظ وإلى بدء انهيار اقتصادها و قوتها العسكرية وهذا بحد ذاتها ما تريده أمريكا. و على قمة الهرم تقف إسرائيل متفرجة سعيدة فليس هناك خدمة أكبر يقدمها لها المجتمع الدولي من تدمير سوريا وإنهاكها لخمسين سنة قادمة.

لذا كان من الحكم ترقب أردوغان عن الانجرار إلى حرب إقليمية و التريث في الرد لتحقيق الهدف المنشود في إنشاء تحالف سني، و لن تخسر سوريا في انضمامها تحت اللواء التركي أكثر مما خسرت في عهد الطغمة الأسدية الباغية و لن تخسر أكثر مما ستخسر لو عادت لعهد الانتداب الغربي الإسلامي ومن الحكم أن لا ننظر إلى التحالف التركي السوري القادم بعين الخوف والرفض و وصفه بالاحتلال أو العدوان، فليس في الإسلام ما يدعو إلى رفض التحالف مع الشعوب الإسلامية و القومية الوحيدة التي يؤمن بها الإسلام هي القومية الإسلامية. أفكار كثيرة و تصورات متباعدة عن سوريا ما بعد الأسد و يبقى الحكم الفصل في ذلك لصناديق الاقتراع، و ستبقى سوريا موضع اهتمام أمريكا كغيرها من دول النفط. ربما يكون زبغينو بريجنسكي الأكثر دقة، والأكثر واقعية، حين قال "ما دام النفط هناك فستبقى أمريكا هناك، ولو استدعت المسألة حرباً نووية.

من يعترض فإما أن يلقى في قاع الماء أو في قاع الأرض، فمن يعيأ به...

صدق المفكر نعوم تشومسكي حين تسأله لماذا تصر أمريكا أن تلعب دور يهودا في الشرق الأوسط؟ و لماذا تريد صلب الربيع العربي بعد أن دفّت مساميرها في رقبته؟

و يفضي إلى خلاصة هامة هي أن الربيع العربي و إن صلب، فإن ثمة هزة قد حدثت في الشرق الأوسط، تنذر بزلزال قادم و لن يقف يهودا في وجه الزلزال.

المصادر: